تاريخ شعراء العربية

العصر العبّاسي الثاني

عمر بن الفارض



إعداد

الدكتور محمد حسني مصطفى

مراجعة

أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

عنوان الدار

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

شارع هدى الشعراوي

هاتف : ٢٢١٣١٢٩ ص . ب : / ٧٨ / فاكس : ٢٢١٢٣٦١ ٢١ - ٠٠٩٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

اسمه ومُنْشَؤُه

هو عمر بن علي ، وكان عليٌّ فارضاً أيْ يعمل بتوزيع الفرائض وهي المواريث ، وهو من أهل مدينة حماة ، لكنّه هاجر منها إلى القاهرة واستقرّ فيها ، ورزقه الله فيها ابنه عمر سنة ٥٧٦هـ . فهو مصري المولد والمنشأ والمَرْبَى والحياة .

وقد وصله أبوه منذ نعومة أظفاره بدروس العلوم الشرعيّة واللّسانية ، حتى إذا شبّ دفعه إلى التقوى وعبادة الله ومعاشرة المستضعفين من المتصوّفة في جبل المقطّم .

وأحسّ ابن الفارض برغبة شديدة في المجاورة بمكّة المكرّمة فرحل إليها ، ومكث فيها خمسة عشر عاماً سائحاً في أوديتها عابداً الله ناسكاً يطلب الفتوحات الإلهيّة ، مكثراً من الصلاة والصّيام ، حتى إذا فُتحت له الأبواب المغلقة ، وشعر كأنه في مقام الشهود للذات العليّة ، عاد إلى وطنه ،، لكنّه ظلّ يأسى لفراقه مهبط فتوحاته الإلهية بمثل قوله :

يا سميري روِّحْ بمكّة روحي ... شادياً إنْ رغبْتَ في إسعادي
كان فيها أُنْسِي ومِعْراج قدْسي ... ومُقامي المقام والفتحُ بادِي

اجتهاده في الرياضة الروحيّة

لزمَ ابنُ الفارض بعد عودته إلى القاهرة مناسك العبادة وبخاصّة في وادي المستضعفين بالمقطّم والجامع الأزهر ،يذكر الله تعالى ويسبّحه ويعبده حقّ عبادته ناسكاً خاشعاً متضرعاً ، شاعراً من وقت إلى آخر أنه أصبح في مقام الشهود لربّه ، فيشخص بصره ويغيبُ عن كل ما حوله غيبة قد تطول أياماً وهو لا يسمع صوتاً ولا يرى أحداً ، ولا يشرب ولا يَطْعَمُ ولا ينام ، فقد غاب عن كلّ حواسّه وغمَره نور شهوده للذات العليّة .

ومضى يعكف على التقوى والنّسك والصلاة ، وشاع أمره في القاهرة ، فكان الناس يزدحمون عليه إذا سار في الطُّرقات يلتمسون منه الدعاء ، وهو غائب عنهم ، مشغول بحبّه لربّه وبما ينظم في هذا الحبّ من أشعار لعلها أروع ما نظمه الصوفية في حبهم الإلهي ، حتى لقِّب سلطان العاشقين للذات الرّبانية .

شعره الصوفي

تَمُوجُ أشعارُ ابن الفارض بوجد مُلْتاع لا حدود له ، متّخذاً لذلك لغة العُشّاق العذريّين وما يذكرونه من معاهد المحبوبة أي مكّة المكرّمة التي هبط عليها النور الإلهي ، وأيضاً ما يذكرونه من نسيم الصَّبا المحمَّل بشذا المحبوبة ، وهو في أثناء ذلك يئنّ وينوح آملاً في الوصال ، وأن يشرق عليه النور الرّبّاني ، متجرّعاً غصص الهجر والصدّ والسُّهاد ، ويصيح فيمن تحدّثه نفسه بسلوك هذا الطريق المحفوف بما لا يُحْصى من الأشواك والصعاب :

هوالحبّ فاسلم بالحَشا ماالهوى سَهْلٌ   فما اختارَهُ مُضنًىً به وله عَقْلُ[1]

وعِشْ خالياً فالحبُّ راحتُه عَناً   وأولُه سُقْمٌ وآخِرُه قَتْلُ[2]

وهو لا يريد القتل الحقيقي ، بل يتّخذه رمزاً للحظات الفناء في الذّات العليّة حين يتجرّد الصوفي من حواسّه ومن كلّ وجودِه فلا يشعر بزمان ولا بمكان ، وكأنّما غاب عن حياته ، بل كأنّما مات بسبب حبّه شهيداً ، وهو موت لا يتحقّق تصوّف بدونه حتى ينمحي المتصوّف في الذات الربانيّة ونورها الإلهي ، وحتى لا يرى في الوجود سوى آيات ربّه ، وما يذكّر به يقول :

تراه إن غابَ عني كلُّ جارحةٍ   في كل معنى لطيفٍ رائقٍ بَهِجِ

في نغمة العود والنّاي الرخيم إذا   تألّفا بين ألحانٍ من الهَزَجِ[3]

وفي مسارح غِزْلان الخمائل،في   بَرْد الأصائل،والإصباح،في البَلَجِ[4]

وفي مساقط أنداء الغمام على   بساط نَوْر من الأزهار مُنْتَسِجِ[5]

وفي مساحب أذيال النَّسيم إذا   أهدى إليَّ سُحَيْراً أطيبَ الأرَجِ[6]

فهو يرى ا لله تعالى وجلالَه في جميع أركان الكون وعناصره : في أنغام

---

(١) مضنى : معذّب .

(٢) عناً : عناء .

(٣) الرَّخيم : اللّين الناعم .

(٤) البلج : أول إسفار الصبح وانتشار الضّوء .

(٥) الأنداء : جمع نَدَى ، وهو الطّلّ . نَوْر : (بفتح النون) زهر .

(٦) الأرَج : الشذا والرائحة العطرة .

العود والناي المرافقة لألحان المزج ، وفي مشــهد غـزلان الريـاض وقـد انتعشـت قلوبها بأنفاس الأصيل والصَّبـاح ، وفي الأزهـار والـورد ومسـاقط أنـداء الغمـام وهي متناثرة هنا وهناك على أبسـطة الطبيعـة البهيجـة ، وفي النسـيم يمـلأ الجـوّ سحراً بشذاه وأريجه العطر .

وابن الفارض لا يعبّر بذلك ومثله في أشعاره عـن إيمانـه بوحـدة الوجـود التي كان يؤمن بها غلاة الصُّوفية ، فهو إنّما يقول إن نور الله عـزّ وجـلّ منبثٌّ في الكون بجميع كائناته وعناصره ، متجلٍّ في كل مناظره ومشاهده ، وذلك هو سرّ وجده وهُيامه ووَلَهِه بربّه ، ويريد أن يشرق عليه ضياء جماله .

وهو يظلّ يحلُم بشهودِه حُلماً متّصلاً مجاهداً في سبيل ذلك ، محتملاً من العذاب ما يطاق وما لا يُطاق ، متغنّياً بالجمال الرّبّاني وما يَصْلَى فيه من هجر ، هاتفاً من فؤاده :

تِــهْ دلالاً فــأنتَ أهــلٌ لذاكـــا	وتحكَّمْ فالحسـنُ قد أعطاكـا
وتلافَى إنْ كــان فيــه ائتلافـي	بك عجِّلْ بــه ، جُعِلْتُ فداكـا
فُقْتَ أهلَ الجَمال حُسْناً وحُسْنَى	فبهـم فاقـةٌ إلـى معناكـا(١)

وهو يضيف إلى الـذات العليّـة التحكّـم والـدلال على طريقـة أصحـاب الحبّ العذري ، ولا يلبث أريج الحب الصوفي أن يعبـق في البيـت الثـاني ، فهـو يطلب أن يتلف في حبّه ما دام في تلفه ائتلافٌ بربه المحبوب جلّ جلاله ، وهو لا يريد التلف الحقيقي إنما يريد الفناء المُطْلق في ربّه وجماله الذي يفوق كلّ جمال ، بل إنّ كل جميل ليفتقر إلى جماله المتجلّي في الكون بنوره .

(١) فاقة : احتياج .

الخمرة الرمزيّة (الصوفية)

على نحو اتّخاذ ابن الفارض للغزل العذري رمزاً لحبّه الصُّوْفي نراه يتّخذ الخمرة ونشوتها رمزاً لهذا الحب ، ولا خمر ولا كؤوس ولا دنان ولا سقاة ، إنما هو جمال الذات الإلهية الذي شُغِفَ به حتى ليظنّ كأنّما نَهَل من شراب قدسي مسكر ، فهو سكران دائماً منتشٍ غائب عن وجوده . يقول :

شـربْنا علـى ذكـر الحبيـب مدامـةً	**سكِرْنا بها من قبل أنْ يُخْلَق الكَرْمُ**
لها البَدْرُ كأسٌ وهي شـمسٌ،يديرُها	**هلالٌ،وكم يبدو - إذا مُزِجَتْ - نَجْمُ**
وإن خطَرتْ يوماً على خاطرِ امـرِئٍ	**أقـامتْ بـه الأفـراحَ وارتحلَ الهَـمُّ**
ولـو نَضَحُوا منهـا ثـرَى قبرِ ميِّـتٍ	**لعادتْ إليه الرُّوْحُ وانتعشَ الجِسْـمْ**

فسُكْرُه بتلك المدامة قديم ، أقدم من الوجود ، وهو يشير إلى فكرة الحقيقة المحمّدية التي يذهب المتصوّفة إلى أنّها تسبق نشأة الكون ، وأنّ أضواء ما زالت تفيض من تلْك الحقيقة في نفوس الأنبياء ونفْس الرسول ﷺ ونفوس المتصوّفة حتى تجلّت في ابن الفارض ، ومن هنا يقول إن سُكْره بها ونشوته يسبقان الخليقة ، ويقول إنها تجلب الفرح وتطرد الهمّ ، وتُحيي الروح ، فلو صبّوها على قبر ميّت لدبّت فيه الحياة ، فخمرته إذاً خمرة ربّانية لا تشوبها أي شائبة مادّيّة ، خمر ينتشي بها ابن الفارض وأمثاله فيغيبون عن وجودهم غيبة كلها نعيم لاحدود له .

وديوانه كلّه من هذا الطّراز : انتشاء وسُكْر وحبّ ووجد ووله والتياع وتطول إحدى قصائده حتى تبلغ سبعمائة وستين بيتاً أو تزيد ، وهي تائيّتُه الكبرى ، ووصفت بالكبرى تمييزاً لها من تائيّة له أُخْرى صُغْرَى .

تـائـيتـه الكبـرى

يصوّر ابن الفارض في هذه القصيدة معْراجه القدسي بمكّة وفتوحه التي هبطت عليه هناك ، وامّحاءه حينئذ في الحقيقتين : الإلهية والمحمّدية ، حتى ليتكلّم في بعض أجزاء القصيدة باسمها ، وهو يستهلّها ببيان شربه من كأس المحبّة الرّبّانيّة ، ونشوته بها ، وما تجشّمه في معراجه من أهوال وخطوب ومحن ، وكلّها كما يقول ، منحٌ من ربه وعطايا اجتازها في معراجه ، خالصاً إلى الامّحاء (الانمحاء) والفناء في الذات العليّة :

ولم تَهْوَني ما لم تكنْ فيَّ فانياً ... ولم تَفْنَ ما لم تُجْتَلَبْ فيك صورتي

كلانا مُصلٍّ واحد ساجدٌ إلى ... حقيقته بالجَمْع في كلّ سَجْدَةِ

وما كان لي صلّى سوايَ ولم تكنْ ... صلاتي لغيري في أدا كلّ ركْعةِ

وكأنه يشعر في البيت الأوّل أنه لا يزال دون الحبّ الإلهي لاتّصاله بل لاتّصافه بالصفات البشرية . ويقول في البيت الثاني إنها ينبغي أن تُمْحَى فيه حتى يفنى في الذّات الرّبانيّة ، وتتجلّى فيه الصورة الإلهية ، وما يلبث أن يقول في البيت الثالث إنّ حواسّه تعطّلتْ وتعطّلتْ فيه كلّ إرادةٍ وشعور ، حتى فَنِيَ فناءً مُطْلقاً في ربّه ، متخطّياً مرتبة الصَّحْو إلى مرتبة الشهود أو كما يسمّيها الجَمْع ، وكأنّما يصلّي لنفسه أو لربّه متجلّياً فيه ، يقول :

وطاح وجودي في شهودي ونبْتُ عن ... وجودِ شهودي ماحياً غيرَ مُثْبِتِ

وفي الصَّحْو بعد المَحْوِ لم أكُ غيرها ... وذاتي بذاتي إذْ تجلَّتْ تَجلَّتِ

فهو قد انمحى وفني فناء كلّيّاً في الذات العليّة ، وبلغ من هذا الانمحاء والفناء أعلى مراتبه ، إذ لا يعتريه في حال المحو والغيبة مع الشهود للنور الرّبّاني ، بل أيضاً يعتريه في حال الصحو ، وهو دائماً يعلن أنّه متمسّك أشدَّ التَّمَسُّكِ بالكتاب وأداء الفرائض الدينية وبالسّنّة النَّبويَّة ، فمنها يستمدّ في كل موارده الروحيّة .

استدلاله على مذهبه بالسّنّة الشريفة

وجاء حديثٌ في اتّحاديَ ثابتٌ ... روايتُه في النَّقْل غيرُ ضعيفَةِ
يشيرُ بحبّ الحقّ بعد تقرُّبٍ ... إليه بنَفْلٍ أو أداءِ فريضةِ

وهو يشير إلى الحديث القدسي : "ما تقرَّب إليّ عبدي بشيء أَحَبَّ إليَّ من أداء ما افترضْتُه عليه ، ولا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافلِ حتَّى أحبَّه ، فإذا أحببْتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به ، وبصرَه الذي يبصر به ، ويده التي يبطشُ بها ، وإنْ سألني أعطيتُه ، ولئن استعاذني لأُعيذنَّه" .

ومات ابنُ الفارض سنة ٦٣٢هـ .

الطابع البدوي

يتَّسِمُ كثير من شعر ابن الفارض بالطابع البدوي العربي ، سواء فيما كان يتعلّق بالأماكن الحجازية التي استكثر من إيرادها ، أم في اللغة التي استعملها ، يقول في تائيّته الصُّغْرى :

نعمْ بالصَبا قلبي صَبا لأحبّتي ... فيا حبذا ذاك الشَّذا حين هبَّتِ[1]
سرَتْ فأسرَّت للفؤاد غُدَيَّةً ... أحاديثَ جيرانِ العُذَيب فسَرَّتِ[2]
مهينمةً بالرَّوْضِ لَدْنٌ رداؤها ... بها مرضٌ مِنْ شأنه بُرْءُ عِلَّتي[3]
أيا زاجراً حُمْرَ الأوارِك تارك الـ ... موارك من أكوارها كالأريكة[4]
لكَ الخيرُ إنْ أوْضَحْتَ تُوْضِحَ مُضْحياً ... وجُبْتَ فيا في خَبْتِ آرامِ وَجرةِ[5]
ونكَبْتَ عن كُثْبِ العريض معارضاً ... حُزوناً لحَزْوَى سائقاً لسويقةِ[6]
فلي بين هاتيك الخيام ضَنِينةٌ ... عليَّ بجَمْعي ، سمحةٌ بتشتُّتي[7]

والنصّ فيّاضٌ بألفاظ الديار الحجازية والبادية النَجْديّة ، مثل العذيب ، وتوضح ، ووجرة ، وحزوى ، وفيها من الألفاظ البدوية الأوارك والموارك ، والأكوار ، وخبت آرام ، وسائقاً لسويقة ، والخيام .

وفي النصّ مجانسة بين سَرتْ : أي سارت ليلاً ، وأسرَّتْ : تحدّثتْ خفيّة ، وسَرَّت : من السرور .

---

(١) صبا : أحبَّ وهفا . الشَّذا : الطِّيبُ .

(٢) غديّة : صُبْحاً باكراً . العذيب : اسم ماء .

(٣) الهينمة : الصوت الخفيّ . لدْن : ليّن رِخْو .

(٤) الأوارك : الإبل . الموارك : موضع التورّك على الرحال . الأكوار : جمع كور وهو الرَّحْل . الأريكة : السرير .

(٥) أوضحت : أشرفت على . توضح : اسم موضع . مُضْحياً : وقت الضحى .جُبْت : طُفْتَ ، قطعْت . فيافي : صحاري . خبْت : واد . آرام : ظباء . وجرة :اسم موضع .

(٦) الكثب : جمع كثيب : منقطع الرمل . نكّبت عن : عدَلت عن . العريض : اسم موضع . الحزون : جمع حَزْن ، الأرض الصخرية . حزوى : منطقة . سويقة : ركب .

(٧) ضنينة بجمعي : بخيلة بوصلي .

ومجانسة أيضاً بين الأوارك وهي الإبل ، والموارك : مواضع التورّك ، والأكوار : الأرْحُل ، والأريكة : السرير .

وبين أوضحْت : أي أشرفتْ على . وتوضح : اسم موضع ومضْحياً : أي وقت الضحى .

وبين جُبْت : أي طُفْت ، وخبْت : وهو بطن الوادي .

وبين العُرَيْض : اسم موضع ، ومعارضاً : أي سائر من جهة العَرْض .

وبين "حزوناً" وهي الأراضي الصُّلْبة ، وحزوى : اسم موضع . وهو يطابق بين مرض وبُرْء ، وزاجراً وتارك . ويردّ العجز على الصدر في (سَرَتْ .. فسَرَّتِ)

وفي بيته الأول :

نعمْ بالصَّبا قلبي صبا لأحبّتي فيا حبذا ذاك الشَّذا حين هبَّتِ

تصريع بين أحبتي وهبّت ، وترصيع بين حبذا والشَّذَا .

المحسنات البديعية

يتّضح في الأبيات السابقة ملامح المظهر البدوي من جهة ، والإكثار من الصِّناعة الشعرية من صور ومحسّنات من جهة أخرى .

وكان الشاعر يكثر من المحسّنات البديعية ، في كل قصائده بصفة عامّة ، على شاكلة قوله :

غيري على السُلْوان قادرْ وسوايَ في العُشَّاق غادِرْ
لي في الغرام سريرةٌ – واللهُ أعلمُ بالسرائرْ
ومشبَّهٍ بالغصن قلبي – لا يزال عليه طائرْ[1]

(١) في كلمة طائر تورية ، لأنّه يريد اسم الفاعل من طار .

طرفي وطَرْفُ النجمِ فيك	**كلاهما ساهٍ وساهر**[1]

فليس ثمّة بيت ليس فيه محسّن بديعي أو أكثر ، ففي البيت الأول تصريع ، وفي الثاني ردّ العجز على الصدر ، وفي الثالث تورية ، وفي البيت الأخير جناس ، وفي قوله طرف النجم استعارة ، وهي صورة بيانية .

القوافي الصعبة

الشاعر ابن الفارض متمكّن من ناصية الشعر ، متصرّف فيه بسهولة ويُسْر ، ومن مظاهر ذلك أنه ينظم في القوافي الصعبة ، والرَّوِيّات النادرة ، مثل الذال :

صَدٍّ حمَى ظَمَئِي لَماكَ لماذا	**وهواكَ قلبي صار منه جُذاذا**[1]
إنْ كانَ في تلفي رضاك صبابةً	**ولكَ البقاءُ وجَدْتُ فيه لذَاذا**
قال العواذلُ عندما أبصرتُهُ	**إنْ كانَ مَنْ قَتَلَ الغرامُ فهذا**

ظاهرة التَّصغير

يُكثر الشاعر من أسلوب التّصغير وبخاصّة في قصائده الغزلية ، عندما يخاطب محبوبه أو يتحدّث عنه ، وهدفه تدليل محبوبه وتجميل اسمه واستعذابه ، فإذا بك ترى سليمى وحبيّباً وظبيّاً ورشيّاً وشُذَيّاً ودُوَيّاً ، وأُهَيْلاً وأصيحاباً ولييْلاً وعريباً وأبَيْرقاً ، وهي تصغير سلمى وحبيب وظَبْي ورشأ وشذا ودواء وأهل وأصحاب وليل وعرب وأبرق .

(١) ساهٍ : من سها يَسْهو .

(١) لَماك : اللّمى : بفتح اللام سُمرة الشّفة ، وبكسرها : جار ومجرور أي ظمأ إلى مائك أي إلى رضابه . جذاذ : قطع .

ويصرّح ابن الفارض بغايته من التصغير في قوله :

عوّذْتُ حبيّبي بربّ الطور — من آفة ما يجري من المقدور[1]
ما قلتُ حبيّبي من التحقيرِ — بل يعذب اسم الشخص بالتَّصغِير

المبالغة

يجنح ابن الفارض كثيراً إلى أسلوب المبالغة ، سواء حين يصف أسقامه أم أحزانه أم نحوله ... :

وَهَى جسدي ممَّا وهَى جَلَدِي لذا — تحمُّلُهُ يَبْلَى وتَبْقى بليَّتي[2]
وعدتُ بما لم يُبْقِ منيَ موضعاً — لِضُرٍّ لِعُوّادٍ حضوري كغَيْبتي
كأنّي هلالُ الشكِّ لولا تأوُّهي — خَفِيتُ فلم تُهْدَ العُيونُ لرؤيتي
نَحرتُ لضيفِ الطَّيفِ في جفنيَ الكرى — قِرىً فجرى دَمْعِي دَماً فَوْقَ وجنتي[3]

ويقول :

هوىً عبرةً نمَّتْ به وجوىً نَمَتْ — به حُرَقٌ أدواؤها بيَ أوْدَتِ[4]
فطوفانُ نوح عند نَوْحي كأدمعي — وإيقادُ نيران الخليل كلوْعتي[5]
ولولا زفيري أغرقَتْنيَ أدمعي — ولولا دموعي أحرقتْنيَ زفرتي
وحُزْنيَ : ما يعقوبُ بثَّ ،أَقَلُّهُ — وكلُّ بِلى أيُّوبَ بعضُ بليَّتي[6]

---

(١) عوَّذْتُ : حصّنْتُ . حُبَيِّب ، بتشديد الياء : تصغير حبيب . الطور : جبل في سيناء .

(٢) وَهى : أنحل وأضعف .

(٣) الطَّيْف : الخيال ، الذكرى . الكرى : النوم . القِرى : طعام الضيف .

(٤) نمّ به : وشى به . جوى : شوق ، ألم الحبّ . نَمتْ به : أخبرت به . أدواء : جمع داء . أودتْ : أهلكت .

(٥) نَوْح : بكاء .

(٦) بثّ : شكا . بليّة : مصيبة .

فقد كشفت عبراتُه هواه ، وأبدى تحرُّقه أشـواقه وتبـاريح هـواه ، وهـي تباريح قتلتْه قتلاً ، أو كادتْ ، ويقول إن أدمعه من الوجْـد غزيـرة كثـيرة ، ولا يشبهها شيء إلا طوفان نوح عليه السلام ، والنّار التي أضرمها النمرود لإحـراق إبراهيم الخليل عليه السلام تشبه نـار لوعتـه المشبوبة ، ودموعـه كفيلـة بإغراقـه غرَقًا ، ونيرانه كافية بإحراقه إحراقًا ، لكن دموعه تسلّطْت علـى نيرانـه ، فوقتْـه شرّ إحراقها ، واستوعب الإطفاء مياه عبراته ، فكُفِيَ إغراقها . ثم يمضي مصوّراً أحزانه وبلاءه ، فأقلّ أحزانه يعدلُ بثَّ يعقوب والـد يوسـف عليهمـا السَّـلام ، وما ابتلي به أيوبُ عليـه السـلام حـين مسّـه الضرّ في بدنـه ، ومالـه ، وولـده ، وأهله : لا يعدل إلا جزءاً من ابتلاء ابن الفارض .

المبالغة في التصوير

في شعر ابن الفارض صـور كثيرة ، وهـي صـور يتّكـئ عليهـا لإيضـاح معانيه غير المادّيّة غالباً ، ولكنّه يبالغ فيها أو في مدلولاتها ، كما في قوله مصوّراً تباريح حبّه :

خَفِيْتُ ضنىً حتّى خَفيْتُ عن الضّنَى ... وعن بُرْءِ أسقامي وبَرْد أُوامـي[1]
ولـم يُبْـقِ منّـي الحُـبُّ غـيرَ كآبـةٍ ... وحُـزْنٍ وتـبريحٍ وفَـرْط سـقام
ولم أدْرِ مَنْ يدري مكاني سوى الهوى ... وكتمان أسراري ورعْي ذمـامي[2]
فأمّـا غرامـي واصطبـاري وسـلوتي ... فلم يَبْقَ لي منهـنّ غيرُ أسـامي[3]

(١) ضنى : ألماً وشقاء . أوام : حرارة العطش .

(٢) الذمام : الذمّة . (٣) السَّلْوة : السلوان ، التسلّي عن المصيبة .

فالشاعر لم يَخْفَ إنّما أحس بالخفاء من الشّقاء ، ويجسّد الضّنى ، ليتوارى عنه ، ويصوّر لنا نفسه وقد فنيت معالمه و لم يبق منها إلا بعض معاني الحزن والألم والمرض ، ويشخّص الهوى فإذا هو امرؤٌ يدري ويعلم ...

انتشار شعره ، وظاهرة الإيقاع الموسيقي عنده

ذاع شعر ابن الفارض في الآفاق ، وأقبل عليه المتصوّفة يستظهرونه ويعلّمونه أبناءهم ، ويحفّظونهم قصائده ، وكثيراً ما رتّله المؤذّنون من أعالي المآذن في الأسحار ، وكانت موسيقاه موفّقة ، مؤثّرة ، جعلته محبَّباً إلى العامّة ، حتّى كانوا يعقدون مجالس لاستماع الأناشيد الفارضيَّة ، من ذلك أنّ الناس كانوا يحتشدون في بيت الصّوّاف في حيّ الحسين بالقاهرة ليسمعوا الشيخ الحويصي وهو يتغنّى بقصيدة ابن الفارض :

ما بين معتَركِ الأحداقِ والمُهَجِ　　　أنا القتيل بلا إثمٍ ولا حرَجِ
ودَعْتُ قبل الهوى روحي لِمَا نظرتْ　　　عيناي من حُسْنِ ذاك المنظَرِ البَهِجِ

وما يزال المنشدون يلحّنون أو قل يترنّمون بقصيدته :

سائقَ الأظعانِ يطوي البيدَ طيَّ　　　منعماً عرِّج عل كُثْبان طيّ

وقد أقبل بعض الشعراء المعجَبين بابن الفارض ، فشرحوا ديوانه ، وأشهرهم حسن البوريني ، وشرحه يقتصر على ظاهر المَعْنى ، وعبد الغني النابلسي ، وكان عبد الغني من كبار المتصوّفة ، فشرح الديوان بحسب مصطلحات أهل هذه الطريقة ، ولم يكتف النابلسي بالشَّرْح ، وإنّما شطّر بعض قصائد ابن الفارض ، مثل رائيته :

زدني بفَرْط الحبّ فيك تحيُّرا — **وارحم حشاً بلظى هواك تسعّرا**

فقال النابلسي :

زدني بِفرْط الحبّ فيك تحيُّرا — **يا مَنْ سبى بجمال طلعته الورى**

وارفق بجسم من صدودكَ ناحلٍ — **وارحم حشاً بلظى هواك تسعّرا**

على أن بعض العلماء رفضوا طريقة ابن الفارض لما توهمُه من .. مظاهر الاتّحاد ووَحْدة الوجود ، وانحصر انتقاد علماء آخرين بأن ابن الفارض أوى إلى عُزْلته وأخلد إلى زواياه في الوقت الذي كانت فيه الأمّة الإسلامية تواجه عدواناً شرساً من كل أنحاء أوربّا ، وهو عدوان كان يقتضي من شباب الإسلام أنْ يتصدَّوْا له بكل بأس ، ونحن لا نرى في شعر ابن الفارض ولا في سيرته شيئاً من ذلك .